الباب الثانى

علم التاريخ وأثره فى نظرية العمران

- علم التاريخ هو أساس علم الاجتماع
- منهج ابن خلدون التاريخى
- تأثر ابن خلدون بعلماء الجرح والتعديل

علم التاريخ وأثره فى نظرية العمران

ذاعت شهرة ابن خلدون(*) واستفاض صيته لارتباط اسمه بنظرية جايلة استحدثها وأطلق عليها « علم العمران البشرى » أو الاجتماع الإنسانى ، ولقد اهتم الدارسون الأوربيون والعرب بهذه النظرية اهتماماً كبيراً ، واحتفلوا بصاحبها كما لم يحتفلوا بعالم مسلم من قبل ؛ ولهذا فمن الأمور النادرة أن تجد مستشرقاً – على الرغم من امتداد أرض الاستشراق من روسيا شرقاً إلى أمريكا غرباً – لم يكتب عن ابن خلدون ، ثم قام بعض تلامذة المستشرقين من أبناء جلدتنا فى متابعة أساتذتهم فى الاهتمام بابن خلدون ومستحدثاته الفكرية ، ولقد تمنينا لو قمنا نحن المسلمين بعامة والعرب بخاصة بادئ ذى بدء بالاحتفال بابن خلدون قبل أن يسبقنا علماء الغرب إلى ذلك ؛ لأن كثيرين من هؤلاء قد لووا عنق بعض الآراء الخلدونية وطوعوها لأهوائهم ؛ فمنهم من جعله « تقدميًّا » اشتراكيًّا ، ومنهم من جعله سلفيًّا ، ومنهم من جعله عدوًّا للعرب مستصغراً لشأنهم ، حاملاً عليهم ، حاطًّا من قدرهم ، ومنهم من حاول انتزاعه من ثقافته الإسلامية انتزاعاً ، ولكنّ منهم كذلك من أعطى الرجل حقه من التقدير ووفاه قدره من الإجلال ، دارساً فكره فى سماحة وتجرد ، عاكفاً على آثاره فى نصفة وحياد .

لقد التفت الدارسون إلى العمران الإنسانى الذى احتفل ابن خلدون بدراسته احتفالاً أفضى به إلى أن يكون علماً جديداً هو « علم الاجتماع » وهم أصحاب حق فى ذلك ، ولكن عدداً غير قليل من هؤلاء الدارسين أغفلوا بقدر أو بآخر أن الأداة التى

(*) ولد فى تونس سنة ٧٣٢ وتوفى فى القاهرة سنة ٨٠٨هـ .

توسلها ابن خلدون إلى الوصول إلى نظريته الجديدة أو علمه الجديد هى علم التاريخ بعد تجريده من الأخبار الخاطئة والأحداث الزائفة .

(١)

علم التاريخ هو أساس علم الاجتماع

عمد ابن خلدون عند أوليات تسجيل أفكاره إلى الاهتمام بعلم التاريخ والتركيز على خطورته باعتباره الأساس الوحيد للنظرية الجديدة التى اهتدى إليها ، والتى أسماها علم الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى . إن ابن خلدون يشير إلى ذلك فى خطبة « المقدمة » ، ويمضى قدماً منشئاً فصولاً نفيسة المحتوى ، يضع لها عناوين على جانب من الإثارة ؛ لكى ينبه عقول الباحثين ، ويلفت أنظار الدارسين إلى تلك العناية القصوى بعلم التاريخ تقييماً وفلسفة وتصويباً ، تمهيداً إلى طرق باب نظريته الجديدة ، واستشراف غاياتها ، والدلوف إلى ساحاتها . لقد لقى علم التاريخ -والأمر كذلك- اهتماماً كبيراً واحتفالاً عريضاً ، إنْ يكونا أصغر حجماً مما لقيه « العمران البشرى » فإنهما ليسا أقل قيمة ولا أخفت صوتاً ولا أدنى بياناً .

لقد انتهج ابن خلدون أسلوباً أدبيًّا أنيقاً عمد فيه إلى اصطناع المحسنات البديعية والإيقاعات الموسيقية حين تحدث عن علم التاريخ فى مستهل « المقدمة » من منطلق مفهومه الجديد لهذا العلم الجليل ، فقال بعد أن حمد الله تعالى ومجّد ذاته ، وبعد أن صلى على النبى وآله وصحبه : « إن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتشدّ إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، وتتساوى فى فهمه العلماء والجهّال ، إذ هو فى ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيه الأقوال ، وتضرب فيه الأمثال ، وتطرف به الأندية إذا غصّها الاحتفال ، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى

نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ؛ فهو لذلك أصيل فى الحكم عريق ، وجدير بأن يعدّل فى علومها وخليق » .

تلك أفضال علم التاريخ كما سطرها ابن خلدون باختصار شديد فى مستهل « المقدمة » ، وهذا هو تقديره لهذا العلم الجليل ، وإن كان أسلوب السجع الذى عمد العالم الكبير إلى اصطناعه فى هذا التقديم قد أوقعه — دون قصد — فى شىء من الخطأ ؛ إذ ليس من المعقول أن « يتساوى فى فهمه — أى التاريخ — العلماء والجهال » اللهم إلا أن تكون حكايات تروى ، وقصص تتداول مما يقع فى نطاق المسلمات ، أو تكون ضرورة السجع أدت إلى ذلك .

ويمضى ابن خلدون فى الحديث عن التاريخ المدوّن معدّداً ألواناً من التحريف شوّهت جوانب منه ، وأشكالاً من التزييف لحقت به دون أن تفطن إلى ذلك الأجيال المتتابعة فيقول : « وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وَهِمُوا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا تُرّهات الأحاديث ولا دفعوها . فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب كليل ، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، ..... ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل ، والحق لا يقاوم سلطانه ، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه . والناقل إنما هو يملى ويَنْقُل ، والبصيرة تنقد الصحيح إذ تمقل ، والعلم يجلو صفحات القلوب ويصقل » .

(٢)

منهج ابن خلدون التاريخى

إن منهج ابن خلدون فى نقد التاريخ دقيق ، مع استفاضة فى البيان وثراء فى ضرب الأمثال التى يستقيها من الأخبار المسطورة فى كتب المؤرخين السابقين ، ولسبب بعينه يغترف أكثر أمثاله من كتب المسعودى ، ذلك أن المسعودى ذو مكانة خاصة لديه ، ويعقد العالم الكبير فصلاً طويلاً من « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها » وهو عنوان طويل ، ولكنه يتضمن إلى دقة المنهج نفيس القول ، ويشتمل على أصول النقد مع وفرة الأمثال التى يخضعها للنقد التطبيقى ، فيتهاوى الواحد منها بعد الآخر ، فمن تلك الأمثال خبر جيوش بنى إسرائيل حسب إحصاء المسعودى لأعدادها ، ومنها ما ينقله المؤرخون كافة من أخبار التبابعة ملوك اليمن ، وأنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب ، وما لحق بذلك من ذكر مواضع ليس لها مكان على الحقيقة ، وغزوات يكذبها العقل وترفضها الفطرة السليمة .

ولا يقف الأمر بابن خلدون عند نقد الروايات التاريخية وتجريحها ثم رفضها ، وإنما يدلف إلى بعض ما ذكره المفسرون مثل « إرم ذات العماد » فى سورة الفجر ، وفى مقدمتهم الطبرى والثعالبى والمسعودى ، ويورد ابن خلدون وصفهم لإرم ذات العماد ، ويسمه بالخرافات ويتهمهم بالهذيان ، ويمضى ابن خلدون على رسله فى هذا الفصل فيورد نماذج من أخبار المؤرخين وآراء المفسّرين ويخضعها لمنهجه النقدى الدقيق ، وينتهى إلى تكذيبها ثم رفضها[1] .

على أن ابن خلدون لم يكتف – فى حديثه عن التاريخ والمؤرخين وأخطائهم وضرب الأمثال – عند الفصل سالف الذكر ، ولكنه كان يعمد إلى ذلك أيضاً فى

(١) راجع الفصل المذكور فى المقدمة صفحات ٩ وما بعدها تاطبعة الثالثة – بيروت .

الفصول التى تحمل عناوين متصلة الأسباب بالعمران ، ففى الفصل الذى عقده عن « طبيعة العمران فى الخليقة » يعود لكى يسهب فى القول عن التاريخ باعتبار أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى ، أى أن التاريخ هو وسيلة كل إنسان للتعرف على المجتمعات الإنسانية من خلال دقة الخبر وصدق الرواية ، وإلا فإن ما يبنى على الخطأ يتحتم كونه زيفاً ، ويعود ابن خلدون لكى يستعرض أمثلة من أخبار التاريخ ووقائعها حسبما رواها بعض المؤرخين ، ويخضعها للأسس النقدية التى وضعها، ثم ينتهى – كما انتهى فى الماضى – إلى رفضها . إنه يذكر خبراً رواه المسعودى عن الإسكندر الأكبر حين فتح مصر وأراد بناء الإسكندرية فصدّته دواب البحر عن بنائها ، فاتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قاع البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت الدواب . لقد حلل ابن خلدون هذه الرواية بأساليب شتى وانتهى إلى أنها حديث خرافة مستحيلة[٢] .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة مما جرى ذكره على أقلام المؤرخين المشهورين مثل المدينة المسماة « ذات الأبواب » المشتملة على عشرة آلاف باب ، ومدينة النحاس التى ظفر بها موسى بن نصير بصحراء سجلماسة ، وتمثال الزرزور الذى بروما والذى إليه تجتمع الزرازير فى يوم معلوم من السنة حاملة الزيتون . يقول ابن خلدون عن هذه الأمثلة إنّها من الاستحالة والبعد بمكان ، وتمحيصها إنما هو بمعرفة طبائع العمران ، وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها[٣] .

ويعرض ابن خلدون للمؤرخين ومن يتصدون للروايات التاريخية ، ويحلل الأخبار فى ضوء المعايير التى توصل إليها من خلال الممارسات الاستقرائية والعلل العقلية، وينتهى إلى أن أسباب الخطأ تكمن فى العوامل الآتية :

---

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٣٧ .

١ – التشيع لرأى من الآراء أو نحلة من النحل تجعل النفس تميل إلى تصديق ما يوافقها من الأخبار .

٢ – الثقة بناقلى الأخبار دون التمحيص الذى قد يؤدى إلى التعديل والتجريح ، أو ما يعرف عند رجال الحديث بالجرح والتّعديل .

٣ – الذهول عن مقاصد الأخبار ، فإن ناقل الخبر كثيراً ما يروى الخبر تبعاً لما فى ظنّه وتخمينه فيقع فى الكذب .

٤ – توهم الصدق بسبب الثقة فى الناقلين .

٥ – تقرب الناس إلى الكبراء وأصحاب المناصب بالثناء والمديح وإشاعة الذكر ، فيتناقل الناس الأخبار التى تتراوح بين الكذب وبين المبالغة والغلو ، فتشيع على غير الحقيقة ، فإن النفوس طبقاً لما يقول ابن خلدون – مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة ، وليسوا فى الأكثر براغبين فى الفضائل .

٦ – الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، وهذا العامل يرجح العوامل السابقة جميعاً ؛ فإن لكل حادث ضبيعة تخصّه فى ذاته وفيما يعرض من أحواله ، ويزيد ابن خلدون هذا العامل بياناً وتوضيحاً فيقول : « فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود ومقتضياتها ، أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض ، وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم » ويضرب ابن خلدون عدداً من أمثلة الأخبار التى يستحيل عقلاً أو نقلاً تصديقها ، كبعض تلك التى مر ذكرها قبل قليل من مثل دواب البحر التى تعرضت للإسكندر الأكبر حين شرع فى بناء الإسكندرية ، أو تمثال الزرزور فى مدينة روما ، أو المدينة ذات الأبواب ، أو مدينة النحاس التى يروى أن القائد الفاتح موسى بن نصير قد ظفر بها فى صحراء سجلماسة.

إن ابن خلدون يحتفل بعلم التاريخ على هذا النحو الذى رأينا ، ويذهب إلى السعى

إلى تخليصه من الروايات الزائفة ، وتجريده من الأحداث الكاذبة ، ويضع لذلك مبادئ وأسساً ؛ لأن الأحداث التاريخية موصولة الأسباب بالإنسان ، والإنسان هو أصل البداوة والحضارة اللتين تشكلان العلم الجديد الذى توصل إليه ، وهو علم الاجتماع الإنسانى الذى يساوى من وجهة نظره عمران العالم . ولكى نسبر غور الفكر الخلدونى عن قرب فى نظريته هذه المزدوجة من حيث احتفاظها بشعبتين جليتى الأثر هما فلسفة التاريخ وعمران العالم ، فإننا لا نرى بأساً من تسجيل النص الخلدونى فى هذا المقام برغم ما قد يرد فى السياق الخلدونى من التكرار أو ما يشبه التكرار[٤] .

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس ، والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك ، والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الأحوال ، ولما كان الكذب متطرفاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الكذب ونقله . ومن الأسباب المقتضية للكذب فى الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين ، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح . ومنها الذهول عن المقاصد ، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه فيقع فى الكذب . ومنها توهم الصدق ، وهو كثير ، وإنما يجىء فى الأكثر من جهة الثقة بالناقلين ، ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الواقع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهى بالتصنع على غير الحق فى نفسه ، ومنها تقرب

---

(٤) المقدمة ص ٣٥ – ٣٨ الطبعة الثالثة – بيروت .

الناس فى الأكثر لأصحاب النحلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا فى الأكثر براغبين فى الفضائل ولا متنافسين فى أهلها . ومن الأسباب المقتضية له أيضاً — وهى سابقة على جميع ما تقدم — الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته وفيما يعرض له من أحواله ، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض .

وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم، كما نقله المسعودى عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية ، وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قاع البحر ، حتى صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ، ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها . وتم بناؤها فى حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجى ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ، ومن قبل أن الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرور، ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره ، وفى ذلك إتلافه، ولا ينتظرون به رجوعه عن غروره ذلك طرفة عين ، ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها ، إنما هى قادرة على التشكل ، وما يذكر من كثرة الرءوس لها فإنما المراد به البشاعة والتهويل لا أنه حقيقة . وهذه كلها قادحة فى تلك الحكاية ، والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله ، وهو أن المنغمس فى الماء ولو كان فى الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعى ، وتسخن روحه بسرعة لقلته ، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبى ويهلك مكانه، وهذا هو السبب فى هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد ، والمتدلين فى الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها

بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها ، فإن المتدلى فيها يهلك لحينه ، ولهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر ، فإن الهواء لا يكفيه فى تعديل رئته ، إذ هو حار بإفراط ، والماء الذى يعدله بارد والهواء الذى خرج إليه حار ، فيستولى الحار على روحه الحيوانى ، ويهلك دفعة ، ومنه هلاك المصعوقين ، وأمثال ذلك .

ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودى أيضاً فى تمثال الزرزور الذى برومة تجتمع إليه الزرازير فى يوم معلوم من السنة ، حاملة للزيتون ، ومنه يتخذون زيتهم ، وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعى فى اتخاذ الزيت . ومنها ما نقله البكرى فى بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة ، وتشتمل على عشرة آلاف باب ، والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتى ، وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم ، وكما نقله المسعودى أيضاً فى حديث مدينة النحاس ، وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ، ظفر بها موسى بن نصير فى غزوته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب ، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه ، فلا يرجع آخر الدهر فى حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص ، وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ، ثم إن هذه الأحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة ، مناف للأمور الطبيعية فى بناء المدن واختطاطها ، وأن المعادن غير الموجودة منها أن يصرف فى الآنية والخرثى(*) ، وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد ، وأمثال ذلك كثيرة ، وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران ، وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها ، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع ، وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر فى التعديل والتجريح ، ولقد عد أهل النظر من المطاعن فى الخبر ، استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل ، وإنما كان التعديل والتجريح

(*) الخرثى بالضم أثاث البيت .

هو المعتبر فى صحة الأخبار الشرعية ؛ لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها ، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط . وأما الأخبار عن الواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان وقوعه وصار فى ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه ، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة ، وإذا كان ذلك ، فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة ، أن ننظر فى الاجتماع البشرى ، الذى هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له ، وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانوناً فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه ، وحينئذ فإذا سمعنا عن شىء من الأحوال الواقعة فى العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه ، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه ، وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا ، وكأن هذا علم مستقل بنفسه ، فإنه ذو موضوع ، وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى .

(٣)

تأثر ابن خلدون بعلماء الجرح والتعديل

لقد ألح ابن خلدون على إظهار أهمية علم التاريخ وبيان خطره ، وأنه من العلوم الجليلة التى لا يتأتى للفرد العادى ممارستها والانخراط فيها ، وإنما هناك مؤهلات بعينها ينبغى أن تتوفر فيه ، وثقافات متعددة يتحتم عليه معرفتها ، وملكات ذاتية يجب أن تكون موفورة لديه . لقد جعل ابن خلدون علم التاريخ من العلوم الشريفة التى لا يمارسها إلا من حاز شروطاً علمية أخلاقية دينية ، تماماً مثل عالم التفسير وعالم الحديث ، وكان علماء الأمة قد وضعوا شروطاً عديدة لكل من يطرق باب هذين

العلمين الشريفين ، فجاء ابن خلدون فوضع شروطاً للمؤرخ ، لا يستقيم له حكم بغيرها ، ولا ينطلق له قلم بدونها ، مثل إجادة علم السياسة ، وطبائع الأمم والسير ، والملل والنحل والمذاهب ، ومعايشة الحاضر ، والمنطق الذى يبنى عليه المماثلة والمخالفة بينهما ، وغير ذلك من الأسس التى فصّلها ؛ ولذلك فإن ابن خلدون يضرب مثلاً للمؤرخ الأمين ببعض أعلام علماء هذه الأمة فى التفسير والحديث والسيرة الذين هم فى الوقت نفسه من كبار مؤرخى الإسلام ، مثل أبى إسحاق ، والبخارى ، والطبرى .

إن ابن خلدون يوضح جانباً من مؤهلات المؤرخ المأمون خبره ، الصادقة روايته ، السليمة أحكامه على النحو التالى[٥] :

« يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها ، وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل خبره ، وحينئذ يعرض الخبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً ، وإلا استغنى عنه . وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك حتى انتحله الطبرى والبخارى ، وابن إسحاق من قَبْلِهما ، وأمثالهم من علماء الأمة » .

إن مجمل القول فى هذا المقام هو أن ابن خلدون يعى تماماً جدة المنهج الذى انتهجه ، والعلم الذى استحدثه ، وينبّه إلى أنه ليس شبيهاً بغيره من العلوم التى قد تبدو لأول وهلة قريبة الشبه به ، أو كأن بينها وبينه وشيجة صلة أو شبه نسب ، مثل علم الخطابة أو علم السياسة .

---

(٥) المقدمة ص ٣٨ .

ولكن يوضح ابن خلدون أنه غير مسبوق إلى هذا الذى توصل إليه ، فإنه يعمد إلى التعريف بكل من علم الخطابة وعلم السياسة ، وهما علمان يمكن أن يشتبه أمرهما مع العلم الجديد ، حتى يتضح الفرق بين علمه المستنبط وبين العلمين سالفى الذكر .

إن ابن خلدون يؤكد على أنه لم يعثر على شيء من هذا العلم الذى « أُعْثِرَ عليه البحث وأدى إليه الغوص » عند أحد من السابقين ، ويبدى دهشته لذلك ، مع أنه لا يسيء الظنّ بعقولهم ، ومن ثم يقرر – فى تواضع العلماء – أنه لا يستبعد أن يكونوا قد عرضوا له ، وكتبوا فيه ، واستوفوه ، ولكنه ضاع مع ما قد ذهب من علوم الأولين ، فإن ما لم يصل إلينا من علوم أكثر مما وصل ، وإلا فأين علوم الأمم ذوات الحضارة كالكدانيين والسريان وأهل بابل وقدماء المصريين وغيرهم . إن ابن خلدون يصوغ فكره هذا على النّحو التالى :

« واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة ، أُعْثِرَ عليه البحث وأدّى إليه الغوص ، وليس من علم الخطابة ، الذى هو الأقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى أو صدهم عنه ، ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية ؛ إذ السياسة المدنيّة هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق أو الحكمة ؛ ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه ، ولكنه علم مستنبط النشأة ، ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة ، ما أدرى لغفلتهم عن ذلك ، وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا ، فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى أمم النوع الإنسانى متعددون ، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل »[٦] .

(٦) المقدمة ص ٣٨ .